

دانتى أليجييرى

حياته وشخصيته

دانتى أليجييرى من أعظم رجال التاريخ . وقد عرف قدره أهل الغرب ، فترجموا مؤلفاته إلى لغاتهم ، ووضعوا عنه مادة غنية من الكتب والشروح والتعليقات . ويقبل كثير من أهل الغرب على تعلم اللغة الايطالية لكي يقرءوا دانتى فى لغته الأولى . ولكننا نحن أهل الشرق العربى لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن دانتى خاصة ، ولا عن الثقافة الايطالية عامة ، وهى تعد من أسس الحضارة الحديثة منذ عصر النهضة . وجدير بنا أن نستيقظ من هذا السبات ، وأن نشارك أهل الغرب فى معرفتهم بالثقافة الايطالية ، وألا نقصر دراستنا على الثقافة الفرنسية أو الانجليزية . ونحن فى هذا الدور من حياتنا أحوج ما نكون إلى التنوع فى معارفنا ، والأخذ عن كنوز الحضارة الانسانية . والعلم ملك للناس جميعاً .

يعتبر دانتى خاتم العصور الوسطى وواضع أساس العصر الحديث على السواء . عاش فى مفترق الطرق ، وتمثلت فيه آثار العصور الوسطى مع تراث العصور القديمة وثقافة العصر الذى عاش فيه . ولا تتحمل هذه التيارات جميعاً فى حياة رجل وشخصيته وفى مؤلفاته ، كما تمثلت فى دانتى .

إن معلوماتنا عن حياته قليلة ، وربما جهلنا كثيراً من التفاصيل ، وواجهتنا فجوات ومتناقضات فى حياته الصاخبة العنيفة . وقد خلق حوله بعض الكتاب جوا من الخيال والأساطير ، وتعمسوا فى دراسته ، وجعلوا منه تمثالا ضخماً . ومع هذا فقد وجد من الكتاب من حاولوا فهمه على حقيقته ، ووصلوا بقدر المستطاع إلى معرفة دانتى الحقيقى الحى ، الذى نطق بحقائق مريرة قاسية عن الأحياء والموتى ، وصور المجتمع الانسانى أصدق تصوير .

ولد دانتى من أسرة طبية فى فلورنسا عام ١٢٦٥ . وعاش فى حى أرستقراطى

نوعاً . وملكته أسرته بعض الأرض فى الريف . وفقد أمه فى سن مبكرة ، ومات أبوه الذى كان يعمل مسجل عقود ، وهو لم يكتمل بعد دور الشباب . وأحب دانتى بياتريتشى فى سن مبكرة ، وتزوجت غيره وماتت فى شرح الشباب . وقد أحب غيرها من النساء ، إلا أنها ظلت عنده فى الحياة والمات مصدر الوحي والالهام . واختلط دانتى بالمجتمع الراقى ، واتصل ببرونتو لاتينى وجويدو كافالكاتى اللذين أفاده فى حياة المجتمع وفى الثقافة . وتلقى دانتى التعليم السائد فى عصره ، واختلف إلى جامعتى بولونيا وبادوا ، وعرف تراث اللاتين وألم بآثار اليونان والشرق القديم ، ودرس تراث العصور الوسطى وثقافة العرب ، وعرف الفلسفة والتاريخ والسياسة واللاهوت والطبيعة والجغرافيا والفلك ، والكيمياء . . . كما أدرك آثار الأدب الايطالى الوليد . وكان دانتى يجد لذة كبيرة فى هذه الدراسات المتنوعة ، التى استعان بها على نسيان كثير من المصاعب والمحن التى واجهته . وتزوج دانتى وأنجب بعض أولاد ، وعاش فى أسرته حياة معقولة . ثم أخذ يهتم بمسائل فلورنسا العامة . واشترك فى حرب الجلف أنصار البابا بزعامة فلورنسا ، ضد الجبلين أنصار الامبراطور بزعامة أريتزو فى موقعة كامبالدينو فى ١٢٨٩ . وكان دانتى فى طليعة قوات فلورنسا ، وأبدى شجاعة فى القتال ، وانتصرت فلورنسا .

دخل دانتى فى سلك مهنة الأطباء والمشتغلين بالعقاقير ، وإن لم يمارس هاتين المهنتين . ثم انتظم فى وظائف الحكومة ، وأصبح عضواً فى مجلس السينوريا فى صيف ١٣٠٠ . وأبدى دانتى وطنية واستقلالاً فى الرأى فى الوظائف والجبان التى اشترك فيها . كان قد حدث صدام مسلح بين فرعى حزب الجلف من البيض أنصار فلورنسا والسود أنصار البابا ، فاشترك دانتى فى قرار نفي بعض زعماء الجانيين ، ومن بينهم صديقه كافالكاتى ، وغلب دانتى فى ذلك المصلحة العامة على الاعتبارات الشخصية . وحدث أن طلب البابا بونيفاتشو الثامن ، كعادة البابوات من قبل ، أن تقدم حكومة فلورنسا . . . فارس لخدمة البابا على الحدود التسكانية . فاتجهت حكومة فلورنسا كالعادة إلى إجابة طلب البابا . ولكن دانتى وقف معارضاً الكثرة ، وحاول أن يضم إليه أهل فلورنسا للدفاع عن مصالحهم فى وجه المطامع البابوية . واتسعت شقة الخلاف بين روما وفلورنسا ؛ فأرسلت حكومة فلورنسا وهدأ للوصول مع

البابا إلى اتفاق يصون المصالح ، وكان من أعضائه دانتى . واجه دانتى البابا بشجاعة ولم يدعن ولم يسلم بمطالبه . وأخفق الوفد فى أداء مهمته . وكان البابا قد طلب إلى شارل دى فالوا الأمير الفرنسى أن يسير إلى فلورنسا لكى يعيد إليها السلام . ووصل شارل وانضم إليه أعوانه من حزب السود ، وهزم البيض المخلصون لقضية فلورنسا . وشوهد الخوف والجبن والخنوع ، والتحول السريع لارضاء السيد الجديد ، وسيطر السود على الموقف ، وصدرت أحكام للتنكيل بالمعارضين ومن بينهم دانتى . اتهم دانتى فى يناير ١٣٠٢ بالغش والسرقة وباستخدام سلطة وظيفته فى ابتزاز أموال فلورنسا ، وصدورت أمواله ، وعزل من الوظائف ، وفرضت عليه غرامة ، وتقرر نفيه من فلورنسا مدة سنتين ، وطلب إليه أن يحضر أمام الحكومة فى زمن وجيز ، فلم يستجب دانتى ، فصدر عليه بعد قليل حكم يقضى باحراقه حيا إذا ما وقع فى يد حكومة فلورنسا . كان ذنبه الحقيقى أنه عارض البابا بونيفاتشو وحاول الدفاع عن مصالح وطنه ، فلقى جزاء ذلك حكم النفى والقتل ، وحرم عليه أن يرى وطنه إلى الأبد ، الشئ الذى هو بمثابة نصف الحياة لمن له قلب .

اتصل دانتى بالمنفيين من فلورنسا ، الذين حاولوا أن يتجمعوا ويهاجموا فلورنسا . ولكن دانتى وجد أن هؤلاء المنفيين يسودهم الاضطراب وتعوزهم الوحدة اللازمة للنجاح ، فنأى عنهم وجعل من نفسه حزبا هو العضو الوحيد فيه . وبعد سنوات لأحت بارقة أمل أمام دانتى للرجوع إلى وطنه ؛ إذ قدم إلى إيطاليا هنرى السابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبدا أنه سيحقق السلام العالمى . كتب إليه دانتى وقابله داعياً إياه إلى تخليص إيطاليا من ويلات الصراع الداخلى ، وإلى تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية . قام هنرى ببعض المحاولات السياسية والحربية ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء على فلورنسا ، ومات هنرى فى ١٣١٣ ، وأخفقت فكرة الامبراطورية . وبعد قليل كان من المحتمل أن يعود دانتى إلى فلورنسا ، إذ وافقت حكومتها على رجوعه بشرط أن يعود معترفا بالخطأ وتائباً يطلب الصفح والغفران . فرفض دانتى هذا العرض وقال إنه لن يعود إلى فلورنسا أبداً ، وإنه سيرى الشمس والقمر والكواكب خارج جدرانها ! فخكمت عليه فلورنسا بقطع رأسه إذا وقع فى يديها ، فى الوقت الذى كان لا يزال يأمل فيه أن تضع فلورنسا على رأسه كليل الغار .

قضى داتى سنوات طويلة فى حياة المنفى ، وعاش بعض الزمن فقيراً مشرداً وجاع وطلب المأوى ، وما كان أشق على نفسه أن يرتقى سلام الناس طلباً للقتل ! وما كان أشد ما يبعد من مرارة فى الآخرين . استيقظ داتى وقد خدعه السراب الجميل ، ورأى العالم على حقيقته . وأحس نفسه وحيداً مخفلاً . وشعر بمرارة الهزيمة ، وفقد الأهل والأصدقاء والمال والوطن . وعميل معاملة اللصوص والمرتشين والشحاذين ، وسخر منه أهل فلورنسا . وكان سفينة بغير شراع تدفعها الريح العاتية من شاطئ لآخر ، ولسعت ألسنة النار أضالعه ، وأصبح روحاً غاضباً داخل هيكل هش . ولم يبق فى يده سوى حفنة من رماد . ولكن هذا الجزاء القاسى الذى لقيه ، وتلك الآلام والمحن التى انصبت عليه ، كانت عنده بوتقة العبقرية . فقد داتى كل شئ ، ولكنه كشف عن خبيثة نفسه . وبعد أن منى بمرارة الهزيمة ووحشة الحياة ، وبعد أن عاش بين الظلم والأحقاد والمطامع وحقارة النفوس وضعة الأصول ، أحس ب حاجته إلى أن يجيب على ذلك كله بالخلق والابداع . وعمل ليل نهار ، وضرب وطرق ، وكتب ثم مزق الورق ، وتصيب منه العرق ، وبكى ، ونفث روحه فيما كتب . وبذلك خلق الكوميديا ، وانتقم لنفسه الأبية العزيزة المتكبرة ، المشخنة بالجراح .

انتقل داتى فى شمالى إيطاليا ، ولقى أحياناً الترحاب وحسن الوفادة عند الأمراء والنبلء ، وعمل سكرتيراً ونديماً ودبلوماسياً لى يكسب القوت . ولكنه لم يستطع دائماً أن يمضى فى خدمة الأمراء والأغنياء فكان ينأى عنهم . وعاش بعض الوقت فى فيرونا ومانتوا ، واستقر به المقام أخيراً فى رافنا ، حيث لقى الترحاب عند أميرها جويدو نوفلو . وقام فى آخر حياته بسفارة بين رافنا والبندقية لازالة بعض أسباب الخلاف بينهما . وفى طريق العودة أصيب داتى بالملاريا ، ولم يتحمل جسمه المرض فأت فى سبتمبر ١٣٢١ ، ودفنته رافنا باحتفال لائق وكرمت ذكراه وأقامت له نصبا .

بعد وقت غير طويل أدركت فلورنسا ما ارتكبته فى حق ابنتها العبقري ، وأرادت أن تكفر عن خطيئتها ، فعهدت إلى بعض الأساتذة ومن بينهم أحد أبناء داتى ثم بوكاتشو فى إلقاء محاضرات عامة عن داتى وآثاره ، وطبعت كتبه وتداولها الناس ، وجرت أشعاره على ألسنة الناس ، وتغنوا بها ، وكشفوا فيها عما خال نفوسهم واضطرم بين جوانحهم . وحاولت فلورنسا أن تنقل

دانتى الجيبرى

حدث الشاعر لى تدفنه فى وطنه باحتفال مهيب . ولكن رافنا عارضت أشد المعارضة . وبذلت فلورنسا جهوداً طويلاً فى ذلك السبيل . وتوسط البابا وسعى ميكلانجلو فى ذلك ، ولكن بغير دون . وخشى أهل رافنا أن تنجح جهود فلورنسا فى المستقبل للحصول على حدث دانتى ، فأخفاه أحد القسس فى مكان مجهول ، ولم يكشف عنه إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وشيدت فلورنسا قبراً رمزياً لدانتى فى كنيسة الصليب المقدس ، مكون من تابوت فارغ ، يعلوه تمثال جالس لدانتى وقد توج رأسه باكليل الغار ؛ وعلى يمين التابوت تمثال سيدة ترمز إلى إيطاليا ، التى تشير إلى الكلمات المحفورة بأسفل تمثال دانتى قائلة « مجدوا الشاعر الأعظم » ، تلك الكلمات التى قالها دانتى فى فرجيل ، وأرادت فلورنسا أن تقوها الآن فى دانتى . وعلى يسار التابوت تمثال سيدة أخرى ترمز إلى فلورنسا ، وهى منحنية لى التابوت تسمى ، وستظل دائماً تسمى ، جزء ما ارتكبت فى حق ابنها البار من نكران للجميل .

إن شخصية دانتى من الشخصيات النادرة . وإذا ما قلبناها على وجوهنا وأوليناها بالبحث والدراسة ، وجدنا فى ثناياها ما يعث على التأمل والتفكير ، وما يثير فى النفس الإعجاب والتقدير ، ولقينا فى تفصيلاتها مرآة الحياة وصورة الانسان العبرى .

كان دانتى رجلاً متعدد الملكات ، وتبدو عليه مصاهر التعارض : كان يختلط بجماعات الشباب المرح ويسخر ويغنى ويعزف الموسيقى ويبكي ويقول الشعر ويرسم ، ويزهد فى الحياة ويتمتع باللذات ، ويبدو خجولاً وديعاً صامتاً ، ومع ذلك فهو جرى شجاع لا يرهب شيئاً . يبدو أحياناً وثنياً وأحياناً مسيحياً ، وتارة بابوياً وأخرى إمبراطورياً . والمرأة عنده نصف إلهة تقوده إلى الفضيلة وإلى الله ، وهى أيضاً صخرة أذلت كبريائه وقادته إلى الشيطان . ويبدو فى أوقات كثيرة صارم المظهر جدى الملامح ، ويلوح شامخاً متكبراً مشغولاً بأفكار عالية ومسائل خطيرة . كان يجارب ويشغى بالسياسة ويقضى الساعات الطويلة عاكفاً على القراءة والدرس ، فاذا ما تعب خرج إلى أحضان الطبيعة الساحرة ، فنظر إلى السماء الصافية وإلى السحاب المتغير وإلى المريج الأخضر ، وجلس تحت الشجرة العالية وقطف الأزهار الجميلة ، والتهم الفاكهة الناضجة وارثشف النبيذ المعتق ، وعطف على الأطفال والمرضى والمحتاجين ، ونظر فى

الصباح إلى نوافذ السنوات وترقب العذارى فى الكنائس . إن ما يبدو عليه من التعارض ما هو إلا مظهر خارجى . والعبارة فوق التفسيرات والتعارض وتعاون آراؤهم وثقاتهم وإحساساتهم على خلق عبقرتهم . هذه الاتجاهات المتنوعة موجودة فى الحياة الواقعة ، وهى من خصائص النفوس الغنية الخصبة . فى دانتى عنصر من كل شئ ، وجمع فى ذهنه الماضى والحاضر والمستقبل ، واستطاع أن يجعل من نفسه ومن آثاره رمزاً رائعاً للبشرية كلها .

امتاز دانتى بالكبرياء ومدح النفس . كان معتزاً بنفسه إلى درجة تجعله لا يكاد يحقد على الآخرين ، وارتفع إلى المستوى الذى جعله لا يرى فى البشر ما يحسددهم عليه . وكل رجال الفن الذين أهينوا وجرحت نفوسهم ، عملوا لتأكيد ما منع عنهم ، وكسبوا ثقة هائلة بنفوسهم واعتزوا بملكاتهم ، وأعلنوا عنها بالقول والعمل والابداع . وكان الفنان يقول لن أساءوا إليه : إنكم لا تريدونى ولا تقدرونى ، وإنى أبدو أمامكم شخصاً نكرة ، وليس عندى مال ولا سلطان ولست من أسرة بارزة ، ومع ذلك فسيأتى اليوم الذى ترغبون فيه على تقديرى وتسعون إلى سعيي ، وسوف أقوم بخلق ما تعجزون عنه جميعاً ، وتدركون أى رسالة انطوت عليها نفسى . هكذا أحس دانتى عندما عاش فى المنفى وعندما أخفق وجاع وطلب المأوى ، وعندما أخذ يكتب الكوميديا . أحس دانتى بعدم التناسب الهائل بين عبقرته وبين حياته الواقعة . وأخذ يمدح نفسه بنفسه ، وإن كان قد اعترف بأن ذلك لا يرضيه كل الرضا . قال دانتى إنه نابغة ، وإن أسلوبه الجميل يضعه فى مستوى هوميروس وفرجيل ، وإن كلماته ستصبح غذاء للناس ، وإنه صلب لا يعبأ بالمصاعب ، وإنه يتشرف بحياة المنفى ، ونعت الكوميديا بالمقدسة ، وسمى نفسه بالحمل وسط الثعالب ، كما تكلم عن شجاعته فى معركة كامبالدينو . كان دانتى يطمع فى أن تتوجه فلورنسا بتاج الشعراء . وبدا كأنه نبي أعزل وملاك بغير عرش . كان يحس أنه أعلى من الملوك والبابوات الذين عجزوا عن أداء واجبهم وأصبحوا لا يصلحون للقيام بالمهام الخطيرة التى أُلقيت على كواهلهم المتداعية . تكلم دانتى كإمبراطور وبابا ، ولعن البابوات والملوك . وتكلم باسم إيطاليا والعالم . فعل ذلك لايمانته المطلق بأنه شاعر عبقرى ، واعتبر أن مجد الشعراء أعظم من مجد الملوك والبابوات . واعتنق رأى أرسطو القائل بسيادة من له

التفوق العقلى . وجعل نفسه مساوياً للقديسين . وأراد فى الكوميديا أن ينير السبيل أمام الانسانية ، وأن يضع كتاباً مقدساً جديداً يعلم البشر . امتاز دانتى بحساسية مرهفة ، جعلته شديد التأثير قادراً على البكاء حتى يفقد الوعى . وعنده غرفة الدموع . ويقول إن البكاء يجعله هشا متهاكاً لا يكاد يعرفه أحد ، ومن فرط الحزن يتحرك رأسه كأنه شئ ثقيل لا حياة فيه ، وتتعب عيناه من الكاء حتى تعجزان عن البكاء . يبكى عندما أحب بياتريتشى ، ويبكى عندما فقدتها بسرعة . وعندما تقدم فى السن لم ينقطع عن البكاء ، فكان يبكى فى كهولته كما يبكى الطفل . ويبكى عندما أهين شرفه ، وعندما جاع وطلب المأوى ، وعندما عجز عن تحقيق أمانيه . ويبكى بكل حواسه عندما كتب الكوميديا . يبكى باولوى فى الجحيم ولا يتكلم ، فكان يكاؤه هو الكلام . ويبكى دانتى عندما شارك المعدين فى الأسهم . ويبكى عندما عاتبته بياتريتشى فى الأعراف . استخدم دانتى حساسيته المرهفة ودموعه المنهرة فى خلق الكوميديا . والبكاء ميزة ونعمة . ولا يمكن أن يكون البكاء غير جدير بال إعطاء . وما أقسى بكاء الرجل المتكبر !

أما الحب عند دانتى فهو الحياة . وما كان يستطيع أن يعيش بغير الحب . أهم حب عنده هو حب بياتريتشى . أحبها فى سن مبكرة . ولم تبادلها الحب . لم تستطع بياتريتشى أن تشاركه فى شعوره لحسن الحظ . ولم تقدر هذا الشاب النحيل المهرف الاحساس المهمك فى دراساته ، والذي لم يكن من أسرة بارزة ذات جاه أو سلطان ، ولم تتكهن بالمصير العظيم الذى ينتظره ، وسخرت من صدقه وإخلاصه ، وكانت تقول عليه مع أترابها من بنات الأسر الأرستقراطية . كانت بياتريتشى تعقل الألسنة عندما تحبى الناس بإيماءة من رأسها ، ولا تجرؤ الأعين على النظر إليها ، وتبدو كأنها ملك جاء من السماء إلى الأرض لى يفعل العجائب . قال دانتى فى الحياة جديدة إنه سيقول عنها ما لم يقله رجل فى امرأة من قبل . وقد بر دانتى بوعده . بعد حياة النفى والجوع والتشرد لم يجد أمامه سوى ذكرى الشباب السعيد ، وبدت أمامه بياتريتشى كنجمة الصبح فى صحراء الحياة ، فهى تهب لنجدته فى الكوميديا وترسل إليه فرجيل وترجوه أن يسارع لانقاذ من الضعوبات التى اعترضت طريقه . ويذكره فرجيل بها دائماً ، لى يشجعه

على اجتياز الجحيم والأعراف . وتبدو يياتريتشى لدانتى فى الأعراف امرأة مكتملة ناضجة . وتندد به لأنه كان فى شبابه يمتاز بالصفات النبيلة والعادات الطيبة ، ثم انحرف عن السبيل القويم واتبع الهوى . وتعنفه لأنه خانها وأحب نساء أخريات . يصورها غاضبة نائرة كما رسمها ضاحكة مسرورة . يقول إن عينها الضاحكتين ألقته فى أفكار متلاحقة ، وإن ابتسامتها جعلته سعيداً وهو فى النار ، وإن كلماتها ضاحكة وصوتها ساحر يصدق كآلة موسيقية . وهى امرأة ممشوقة القوام فارعة القد تنظر إلى الأفق فيضطرب عند مرآها . وهى تطهر نفسه من أدران الجسد وتلهبه بتيرانها وتقوده فى السموات ، وتجعله قادراً على رؤية الله . وبذلك تحيله إلى عابد متصوف عاشق يقرب من الحب الأول .

ومع هذا فقد أحب دانتى غيرها من النساء . بكى دانتى عندما ماتت يياتريتشى ، ولكنه كان فى حاجة ملحة إلى الحب . التقى عن طريق دموعه غيرها من النساء ، ولا شئ يؤدى إلى الحب كما تؤدى الدموع مع الدموع والزفرات مع الزفرات . يقول عن فيولتا إنها جعلته يتشوق ويتهد عند مرأى الورود . وأحب المرأة الصخرة وارتمى تحت قدمها ، وظلت باردة أمامه كالصخر الذى يغرقه فى أعماق البحر بعد النوء الشديد . وكان دانتى بذلك يعشق الجمال أينما وجد ، ويستجيب لنداء القلب . وما قلبه إلا جزء من الطبيعة يطير مع الرياح ، ويهر مع النسيم ، وينساب مع محدرات المياه ، ويشارك الثلج فى نصاعته فوق قمم الجبال العالية ، ويستيقظ مع الربيع الضاحك المزدهر .

كان دانتى شجاعاً جريئاً لا يرهب شيئاً فى الدفاع عن رأيه ووطنه . عارض سياسة بونيفاتشو اللامن وحاول الدفاع عن مصالح فلورنسا . وضع دانتى نفسه بذلك أمام قوة هائلة ما كان يستطيع إنسان أن يقف فى سبيلها . ولم تكن هناك مقارنة بين قوة الرجلين فى انبمع . ومع ذلك فقد وقف الرجلان وجهاً لوجه ، ونظر كل منهما للآخر محاولاً تغليب فكرته . وقف البابا غاضباً متكبراً ، ووقف دانتى جريئاً شجاعاً . قال البابا : «لماذا أنتم معادون ؟ اخضعوا لى ، إتنى لا غرض لى سوى توطيد السلام فى فلورنسا . » ولكن دانتى كان يعرف أنه يريد توطيد السلام ابابوى ، فلم يسلم ولم يدعن . تشابه الرجلان فى الصلابة والقوة والطموح والكبرياء ، ولكنهما اختلفا

في كثير من التفصيلات . كان بونيفاتشو رجلاً قويا بمركزه وسلطانه غنيا بالذهب ، وحوله الأمراء والنبلاء ، في حين لم يكن لدائتي ثروة ولا مركز ولا سلطان على الأمراء . كانت قوة دائتي لا تزال خافية في قلبه وعقله وفنه . أراد بونيفاتشو أن يسيطر على الملوك والأسراء ، على حين سيحكم دائتي في عليائه على الملوك والأباطرة والبابوات . وكان كل منهما خيالياً : أراد بونيفاتشو أن يحقق المثالية الدينية التي تنتهي إلى شخصه ويجعل في يده السلطة الدينية والزمنية على السواء ، على حين كانت مثالية دائتي ترمي إلى جعل الامبراطور صاحب السلطة الزمنية والبابا صاحب السلطة الدينية . وشعر كل منهما أنه ملهم من الله ، بونيفاتشو كبابا ودائتي كشاعر . واحتقر بونيفاتشو رجل الدين والسياسة والمال صفة الشاعر في دائتي . ولم يعترف دائتي للبابا المرتشي بصفته الدينية . لم يعترف دائتي بغير قوة الروح والفن . واحتفظ كل منهما بصفات موطنه . فاستاز بونيفاتشو بالجفاف والصرامة والغلظة والتعصب السائد في رومانيا . على عكس دائتي الذي استاز بصفات الفلورنسي رجل الأدب والثقافة والذوق والفن . وكذلك اختلف الرجلان في المظهر ، فكان بونيفاتشو شيخاً فوق الستين ، مليء الجسم طويل القامة ، في حين لم يتجاوز دائتي السادسة والثلاثين ، وكان ذا قامته متوسطة وجسم نحيف . على أن كليهما استاز بجبهة عريضة وعيون براقة لامعة . واتهم الاثنان بالرشوة والاختلاس ، وإن كان بونيفاتشو وحده هو المتهم . ولم يتصور البابا أن دائتي سيضعه في الجحيم وسيقول عنه إنه القسيس الأعظم وبأنه مغتصب الكرسي البابوي وبأنه رجل جشع منافق . وهكذا وقف دائتي أمام بونيفاتشو بعزم لا يلين وشجاعة لا توصف . ولقى دائتي جزاء ذلك النفي والفاقة والتشريد ، ثم كسب الخلود .

ونجد دائتي ساخطاً أشد السخط على المجتمع الذي عاش فيه . وكثيراً ما بدا له العالم مليئاً بالأخطاء وخلواً من كل فضيلة . واعتبر أعمال أكثر الناس تؤدي إلى انهيار المجتمع . حتى أعمال الملوك ورجال الدين أثارت في نفسه السخط والاشمئزاز . اعتبر دائتي الرجال متغيرين متقلبين . وهم حيوانات بهيمية وأشبه بالوق . والمبشرون والوعاظ حيوانات ، والقسس يملأون بطونهم ، والبابا منهم وخارج عن تعاليم الكنيسة . والايطاليون لصوص سفلة وعبيد

أذلاء . والفرنسيون منغطسون والأسباب بجلاء وبذلك لم يكده شئ يرضيه في زمانه . والحاضر عنده شر وفوضى ومدعاة للجدل . وكان داتى يتطلع إلى ملجأ آمن في زوايا الماضى وثنايا المستقبل . لم يرض عطاء الرجال عن الواقع لأنهم أدركوا باحساسهم المهف ما لم يدركه الغير . ورأوا بعينهم الصافية ما عجز أهل العصر عن رؤيته . وليس من الانصاف أن نعتبر داتى متشامماً . هو فوق التشاؤم والتفاؤل . وجهلاء أولئك الذين يقدون الساخطين على المجتمع . إنهم يريدون أن يرضى العطاء بما يقنعون هم به . لم يكن سخط داتى تشاؤماً وياساً من الحياة ، ولكنه كان حافزاً للإصلاح والتغيير .

وسيحاول داتى التأثير في الناس عن طريق الشعر الرائع والفن الرفيع . والوطنية من صفات داتى الواضحة . كثيراً ما تكلم عن إيطاليا : عن مدنها وقراها وأنهاؤها وجبالها وكنائسها وأبراجها وأهلها . وأعطى صورة جغرافية لكثير من أماكنها ، وحدد ارتباط الأشخاص بتلك الأماكن . ولم يحب داتى مكاناً في الأرض كما أحب إيطاليا وفلورنسا خاصة . فايطاليا عنده حديقة الامبراطورية ومركز العالم . وفلورنسا هى الوطن النبيل والمدينة العظيمة على نهر الأرنو الجميل . وهى المكان الجميل الذى نام فيه كالحمل . ومع ذلك لم يتكلم داتى بقساوة وعنف كما تكلم عن فلورنسا وإيطاليا . قال عن فلورنسا إنها غابة حزينة بائسة ، وإنها مليئة بالحسد والكبرياء والبخل ، وحكومتها سيئة مضطربة ، وأهلها لصوص ووحوش ، وقد أحبوا الذهب إلى درجة أن فلورنسا أصبحت جديرة بأن تسمى مدينة الشيطان . ويقول إن نساء فلورنسا الفاجرات يخرجن ولا حياء هن لاغراء الناس ، بابرار أئديين التى يجب أن تحفظ لارضاع أبنائهن الأبرياء . وعندما أخفق الامبراطور هنرى السابع أمام أسوارها ازداد غضب داتى ، ونعتها بذئبة الأرنو وبالأنفى وبالغزوة المريضة . وكذلك لعن داتى كثيراً من أنحاء إيطاليا . فلا يكاد يوجد بها مكان إلا يثير غضبه ويفتح في جسمه جرحاً قديماً . أرض إيطاليا ملائى بالأشواك والعواصف والحجرائم والآثام . وهى الأرض الحائنة الخبيثة الحسود العاصية . يقول إن لوكتا مليئة بالمزيفين ، وبستويا موطن الوحوش ، وأهل بيزا ذئاب ، ولونيا ملائى بالبخلاء والوصوليين ، وأهل جنوا خلو من كل كياسة ويستحقون الازلال .

لم يوجد من لعن شعبه كما فعل دانتى . وإن من يلقى هذه اللعنات لا بد أن يكون قد تألم كثيراً فأفرغ ما فى نفسه . والسباب واللعنات فن جميل ولغة عنيقة كان يفهمها الشعب الايطالى صاحب العواطف الحارة والتعبيرات العنيقة . ولا تدل اللعنات دائماً على السفه والبذاءة بقدر ما تدل على الحب والحرص على المصلحة . ولم يكره دانتى فلورنسا وإيطاليا ، بل هو على العكس كان حبه لها أعظم من أن يحملها على الوقوف أمام أخطأهما موقف المتفرج المحايد . أحب بلاده وأساء ما كانت عليه من الفوضى والانقسام ولم يستطع السكوت على ما كانت تعانيه . استمد دانتى من ويلات إيطاليا ونكباتها وحياء لشعوره الوطنى الصميم ، وصدرت عنه روح وطنية عالية فى سبابه ولعناته . خاطب دانتى إيطاليا بلفظ إيطاليا . وربما كان أول من أدرك قيمة وحدتها السياسية . قال : « يا إيطاليا ! أيتها العبدة الذليلة ، ياسفينة بغير شراع وبغير ملاح وسط العاصفة الهوجاء . أنظرى إلى سواحك وأطرافك واجمعىها إلى صدرك . أيعرف أى جزء من جسدك معنى السلام واهدوء؟ » وخاطب الله طالباً الصفح والمغفرة ، وسأله هل أدار نظره عن إيطاليا ، وماذا يخفى لها فى طيات المستقبل من الأحداث؟ بهذا أصبح دانتى نبي إيطاليا ، وأعطى وطنه حلماً سياسياً مستمداً من الواقع ومن غير الواقع ، من الماضى ومن المستقبل ، من الدموع والأسى والزفرات المترجئة بالأمل والرجاء . وظلت صيحاته تجرى فى دماء الايطاليين ، وأصبحت كلماته بمثابة إنجيل الوطنية الايطالية فى القرن التاسع عشر .

إن دانتى قمة شاهقة مشرفة على البشرية من عليائها خلال القرون . إنه كالمارد بين الأقرام من البشر . إنه نار ونور . إنه حى خالد . إنه أكثر حياة من أولئك الموتى الذين يظنون أنفسهم أحياء وما هم بأحياء .

من عثمانه